الإخلاص
فليتك تحلو والحياة مريرة

يقول ربك عز وجل :

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:162،163]

obeikandl.com

obeikandl.com

الروضة الثانية

ويقول حبيبك ﷺ :

إن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة .

الطبراني والحاكم وقال: صحيح الإسناد

وقيل ليحي بن معاذ :متى يكون العبد مخلصا ؟ فقال :

إذا صار خلقه كخلق الرضيع لا يبالى من مدحه أو ذمه .

تنبيه المغترين صـ87

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

قال لي صاحبي يحاورني : ماذا بعد ؟ فأجبته : إلي قمه تحتاج إلي همة ، ومنزلة تطلب بالقلوب لا بالأقدام ، إلي روضة الإخلاص ، فتوقف صاحبي مندهشا كأنما رآنا نطلب أحد مستحيلات العرب : الغول والعنقاء والخل الوفي ، أو كأنما نبحث عن كنز مخفي لا يدرك ولا ينال ، فقلت موجها حديثي إليه : أراك ترددت ثم توقفت فما بك ؟ قال متعجبا ومستوضحا : روضة الإخلاص ؟ وكيف السبيل إليها ؟وكيف الوصول إلي حماها ؟ لقد تقطعت دونها أعناق الإبل ، وضل في الطريق إليها من ضل ، وسقط قبل بلوغها من سقط ، وهلك في طلبها خلق كثير ، أفندركها نحن – أنا وأنت– ؟ وقد علم ربي ما نحن عليه من فقر وفاقة ، وضعف وتقصير ، وذنوب لو كانت لها رائحة ، لفر الناس منا فرارهم من المجذوم وإلي الله المشتكي ، قلت وقد أثرت في كلماته ، وهزنى تأثره : استعن بالله ولا تعجز ، وامض في سبيلك ، فالطريق هين ، والمطلوب سهل ما دام المعين هو الله تعالي والمرشد الأمين هو رسول الله ﷺ ، فسكن صاحبي ، وانفرجت أساريره ، وبدت علي ملامحه علامات الرضى .... ثم مضي .

ولم نكد نفارق موقفنا ونتقدم خطوة ، حتي هبت علينا ريح ما علمنا أن بشرا صادف مثلها ، لامست جلودنا فارتعشت ، وعانقت قلوبنا فانتعشت ، واحتضنت أرواحنا فسكرت بخمر حلال كأنها من بلاد الأفراح جاءت ، ومن رياض الخلد أقبلت ، فأخذت صاحبي نشوة عجيبة ، ورمقته يرنو ببصره ويحلق بخياله كأنما يستطلع مصدرها ، فقلت له : أنا أدلك علي الطريق وأقطع عليك الحيرة قبل أن تسأل ، هذا أيها الحبيب عبير الإخلاص ، ومسك التجرد ، وريح التوحيد ، وإن عبيره ليدرك من مسيرة كذا وكذا ، وهذه النفحة التي وجدت بردها في قلبك ، ونشوتها في صدرك إنما هي إشارة فقط علي قرب الوصول فاستعد وتهيأ ، فإن الروضة التي نطلب ، لا يفصلنا عنها سوى خطوات ، وما هي إلا

لحظات ، وستجد نفسك بالباب ، قال صاحبي : فهل لك ان تشرح لي طرفا من معني الإخلاص قبل الوصول ، لأكون من أمرى علي بينة ، ومن طريقى علي بصيرة ؟ قلت : أبشر أيها الحبيب ، لقد سألت عن عظيم لا أرى نفسي أهلا له ، ولكن أرباب القلوب من الصالحين والربانيين كفوني وإياك – بفضل الله – هذه المؤنة ، فتعال نلتقط من مدارج السالكين ثلاثة أعواد من الريحان في تعريف الإخلاص ، لعلك تعرف ما تطلب، **وتدرك طرفا مما تقصد :**

العود الأول : وعليه أيها الحبيب مكتوب بحروف من نور أن الإخلاص هو : إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة [1] اقرأها أخي بالله عليك وأعد قراءتها مرة بعد مرة ، فإنها والله جملة عبقرية ما خرجت إلا من قلب تقي وما جرت إلا علي لسان زكي ، وسبحان من يجري الحكمة علي لسان أهله وخاصته ، إفراد الحق بالقصد ، وبعد أن قرأته دعني أسألك : هل أدركت مغزاه ؟ وهل استوعبت بكل كيانك معناه ؟ وهل وصل عبيره إلي عقلك فوجدت أثره في قلبك ؟ إفراد الحق بالقصد ، الله أكبر ، أما أنا فلا أجد لهذا التعريف تفسيرا ولا توضيحا أكمل ولا أشمل من قول مولانا عز وجل : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:162،163] وسأترك سيدا رحمه الله تعالي يزيدك وضوحا ، ويفتح أمام عقلك وقلبك آفاقا أخري ، لن تجدها عند غيره ، يقول رحمه الله : (**إنه التجرد الكامل لله ، بكل خالجة في القلب ، وبكل حركة في الحياة ، بالصلاة والاعتكاف ، وبالمحيا والممات ، بالشعائر التعبدية وبالحياة الواقعية ، وبالممات وما وراءه ، إنها تسبيحة التوحيد المطلق والعبودية الكاملة ، تجمع الصلاة والاعتكاف ، والمحيا والممات ، وتخلصها لله وحده ، لله رب العالمين " القوام المهيمن المتصرف المربى الموجه الحاكم للعالمين ، في إسلام كامل لا يستبقى في النفس ولا في الحياة بقية ، لا يعبدها لله ، ولا يحتجز دونه شيئا في الضمير ولا في الواقع "وبذلك أمرت " فسمعت وأطعت " وأنا أول المسلمين " **) [2] .

---

(1) مدارج السالكين . حـ2 صـ95 . ابن القيم .

(2) في ظلال القرآن جـ3 صـ124 .

العود الثاني : وعليه مكتوب بلون المسك أن الإخلاص هو : نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلي الخالق ، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله [1] . يالله ، إنه التجرد التام مع كل خلجة نفس ، وحركة عضو لله رب العالمين ، إنه وبمعني واحد وواضح ومحدد : أن لا تري الناس شيئا وأنت تعمل لربك ، فمن أسقط الناس من حسابه وهو يعمل لمولاه ، توحدت همته ، وخلص رجاؤه ، وصفت مشاربه ، ويوشك أن يدرك ما يطلب ، إن الناس أيها الحبيب لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، فكيف يملكون ذلك لغيرهم ؟ وماذا يملك لك عريق في الفقر حتي تعمل له وتجتهد من أجله. ثم .... تطلب منه الجزاء ؟ اسمع أخي قول مولاك . واحذر أن تتخطاه حتي تملأ نفسك منه ، فإنه والله القول الفصل ، والنصيحة الصدق ، يقول ربي وربك ورب الناس : ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر:2]. إن القلب الذي عرف معني التجرد ، وذاق طعم الإيمان ، وتذوق حلاوة اليقين ، تجد صاحبه (**يدين الله وحده ، ولا يحني هامته لأحد سواه ، ولا يطلب شيئا من غيره ، ولا يعتمد علي أحد من خلقه ، فالله وحده هو القوي عنده ، وهو الظاهر فوق عباده ، والعباد كلهم ضعاف مهازيل ، لا يملكون له نفعا ولا ضرا ، فلا حاجة به إلي أن يحني هامته لواحد منهم ، وهم مثله لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، والله وحده هو المانح المانع ، فلا حاجة به إلي أن يتوجه لأحد غيره ، وهو الغني والخلق كلهم فقراء)**[2].

ألا تري أيها الحبيب أنك – وأنت صاحب دعوة وحامل رسالة – أفقر الخلق إلي هذه المعاني ؟ وأنه من اللائق بك والأجدر بمثلك أن تكون علي إيمان تام ويقين جازم ، بأن ربك هو المالك ، وهو المدبر ، وهو المتصرف ، إذا قال فلا راد لقوله ، وإذا قضي فلا معقب لحكمه ، فإذا كان مولاك كذلك : فلماذا تحني هامتك لذي سلطان متجبر؟ ولماذا تتضعضع أمام ذي غني مستكبر ؟ ولماذا تسكت عن حق لك ولدعوتك عن شعور بالذلة والقلة ؟ إن هذا لا يليق بك ومولاك أخي هو القاهر فوق عباده وبيده مقاليد كل شيء ، فإذا أردت أيها الحبيب أن تبلغ ما تريد ، وأن تطأ بقدمك روضة الإخلاص

---

(1) مدارج السالكين . جـ2 صـ95.

(2) الظلال . جـ5 صـ3036.

لتنعم بها ، وتعيش في معية أهلها ، فإن المطلوب منك بكل بساطة ووضوح أن تنسي الخلق وأنت تتعامل مع الخالق ، وأن تسقط الناس من حسابك وأنت تتعامل مع رب الناس ، أما أن تراقب الخلق في كل عمل ، وأن تتزين للناس عند كل نظر ، فهذا لا يليق برجل يردد في صلاته صباح مساء : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5] .

العود الثالث: وعليه بهاء الذهب معان جامعة مانعة تقول إن الإخلاص هو **(استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن ، والرياء : أن يكون ظاهره خيرا من باطنه ، والصدق في الإخلاص : أن يكون باطنه أعمر من ظاهره)** [1] .

ونحن هنا أخي الحبيب أمام عود من الريحان يحمل أوراقا ثلاثة :

الأولي تتحدث عن الإخلاص ، **والثانية** تصف حقيقة الرياء ، **والثالثة** تشرح لنا معني الصدق في الإخلاص فلنقف وقفة **مع كل ورقة :**

الورقة الأولي : وعليها أخي أن الإخلاص هو : استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن ، هذا هو الإخلاص أخي ؛ أن يكون السر منا كالعلانية ، فهل أنت كذلك ؟ وهل أنا أيضا كذلك ؟ سؤال قد يسبب لي ولك كثيرا من الحرج ، وأرجو أن نجد له جوابا ، إن همنا – للأسف – محصور في أن نلبس أغلي ما نجد ، وأن نركب أفخر ما نجد ، وأن نبني أفخم ما نستطيع ، مراعين في ذلك فقط شهوة النفس ونظر الخلق وحديث الناس ، وفي ذات الوقت ننسى – وهي الطامة – نظر الرب ، وصفاء القلب والمنزلة والوجاهة عند رب السموات والأرض ، وهذا هو الهلاك ، ونسأل الله اللطف ، إن ربي لطيف لما يشاء ، وهنا في هذا الموطن تسعفني الذاكرة بشيء تحفظه في هذا المعني فتقول : ليت أحدنا يعتني بقلبه كما يعتني بنعله ، يالله ، ألهذا الحد تعاظم عندنا شأن المادة ، وهان علينا أمر القلب ؟ إن الرجل منا إذا أبصر خرقا في حذائه ، بادر إلي علاجه وسارع في إصلاحه ، وفي ذات الوقت نري الثقوب في قلوبنا والأذي في أرواحنا ، والهوي في صدورنا . فلا نحفل بذلك ولا نعبأ ، وإن أحدنا ليستحي أن يلبس جوربا مشقوقا مثقوبا حتي يبادر فيستبدله بجديد أو يخيط شقوقه ويسد ثقوبه ، ولكننا – ومع الأسف والإشفاق – نري الثقوب في قلوبنا والشقوق في أرواحنا ، فلا يهتز لنا جفن

---

(1) نفس المصدر . جـ2 صـ95.

ولا يقشعر لنا جلد ، ولا نلقي لذلك بالا ، وما ذلك إلا لهوان الباطن وغلبة الظاهر ، وهذا لا يليق بطلاب الآخرة وعشاق الجنان والباحثين عن الحور ، إن طلاب الآخرة تأتي قلوبهم علي قمة اهتمامهم ، لأنهم يؤمنون أن مولاهم لا ينظر إلي صورة سوف تفني ، ولا إلي جسد سيبلي ، وإنما نظره فقط نحو عمل صالح سوف يبقي .

الورقة الثانية : وفيها أيها الحبيب أن الرياء هو : أن يكون ظاهره خيرا من باطنه ، يجمل الظاهر ، ويهمل الباطن . يعمر البدن ويدمر القلب ، نظر الناس مقدم عنده على نظر رب الناس ، ياالله : أن يكون ظاهره خيرا من باطنه ، وهل يليق هذا بمسلم يتاجر مع ربه فيبيع النفس والمال ويشتري الجنة ؟ يا مولاى ومولي الناس عذرا ، فكم فينا من قاعد مقصر ، وكم بيننا من فقير مذنب ، ينظر إلي الناس ولا ينظر إليك ، ويراقب الخلق ويغفل عن رب الخلق ، كهذا الذي يصلي وهمه واحد ، وهو الناس ، يستميل بصلاته قلوبهم ويخطب بصدقته ودهم ويطلب بعمله رضاهم ، وهذا كله نوع من النفاق رخيص قدمه لنا القرآن الكريم في صورة كريهة منفرة أتركك لتقرأها بنفسك ، لتقف علي ما فيها من بغض وتطلع علي ما تحوى من شناعات ، يقول مولانا جل وعلا : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:142] ويقول سيد رحمه الله : (**لا يقومون إلي الصلاة بحرارة الشوق إلي لقاء الله ، والوقوف بين يديه والاتصال به ، والاستمداد منه ، وإنما هم يقومون يراؤون الناس ، ومن ثم يقومون كسالي كالذي يؤدي عملا ثقيلا ، أو يسخر سخرة شاقة ، وكذلك هم لا يذكرون الله إلا قليلا ، إنهم لا يتذكرون الله ، إنما يتذكرون الناس ، وهم لا يتوجهون إلي الله وإنما هم يراؤون الناس**) [(1)].

إن ظواهرهم – كما تري – لا بأس بها ، ولكن بواطنهم نفاق يطفح ، وحقد ينضح علي الحق وأهله ، وكفر بواح يصد عن الله وعن سبيل الله .

الورقة الثالثة : وفيها أيها الحبيب أن الصدق في الإخلاص هو : أن يكون باطنه أعمر من ظاهره ، وتلك هي القمة التي تتوق إليها قلوب الصالحين ، وتتطاول إليها

---

(1) الظلال . جـ2 صـ784 .

أعناق المؤمنين ، وتهفوا إليها أرواح المخبتين ، نعم أخي هذا هو الصدق في الإخلاص ، أن يكون الظاهر حلوا ، والمشهد جميلا ، يحليه الالتزام بفرائض الله ، ويجمله الوقوف عند حدود الله ، ويكمله الحفاظ التام علي حرمات الله ، هذا هو ظاهر المخلصين ، أما باطنهم فهو أعلي وأجمل وأرفع وأكمل ، فترى أحدهم في خلوته أشد اجتهادا من جلوته ، وفي ليلة أعظم نشاطا من نهاره ، وفي انفراده أعظم همة واجتهادا منه أمام جماعته ، وما ذلك إلا لسبب واحد وواضح هو أنه يعلم أنه يتعامل مع من يرى سره ويعلم جهره ويطلع علي أحواله في خلوته وجلوته ، وينظر إلي القلب منه لا إلي الجسد ، إنه أيها الحبيب يجاهد نفسه ويزكيها ويقوم علي تأديبها لتكون أهلا للتقوي ومنزلا للإحسان ، ولا يغره ما يرى من عبادته ، ولا ما يسمع من ثناء الناس عليه ، جاء في الإحياء أن رجلا قال لمالك بن دينار – وما أدراك أخي من هو مالك بن دينار؟ – : يا مرائى ، فقال له مالك : متي عرفت اسمي ؟ ما عرف اسمي غيرك [1].

إن الإخلاص أخي سر بين العبد وربه – كما قيل – فلا يطلع عليه ملك ليكتبه ، ولا شيطان ليفسده ، ولا هوى فيميل به ، ومن ثم فهو نادر عزيز ، شديد علي النفس ، وقد قيل لسهل رحمه الله : أي شيء أشد عل النفس ؟ فقال : الإخلاص ، لأنه ليس لها فيه نصيب [2] .

وبعد طول دأب وكثير سعى وعظيم جهد ، وجدت نفسي وصاحبي أمام باب عظيم ، بعيد ما بين مصرعيه ، به حلقتان عظيمتان ، مكتوب عليه بأجمل خط وأوضح حرف هذه الآية :- ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء:125] فأدركنا أننا أخيرا بعد طول مشقة وعظيم جهد أمام روضة الإخلاص ، فقال صاحبى : لو شرحت لى ولو في خاطرة قصيرة هذه الآية ؟ فقلت : لست لذلك بأهل ، فإن ما تطلب يحتاج إلي قلب تقى

---

(1) الإحياء .جـ3 .صـ287.

(2) مدارج السالكين . حـ2 صـ95.

ولسان نقى وروح وثابة لا ترتاح إلا في الجنة – ولست بصاحب ذلك ، ولكن سأجمل لك القول فيها : الإسلام معروف والإحسان كذلك ، ولعل الإسلام هنا – والله أعلم بمراده – يعنى إخلاص القصد والعمل لله ، والإحسان يعنى المتابعة لرسول الله ﷺ ، فتصبح الآية : وقد جمعت بين أمرين عليهما مدار الدين كله : إخلاص لله ومتابعة لرسول الله ﷺ.

وطرقنا باب الروضة برفق وحتي يؤذن لنا قلت لصاحبي : دعني أزيدك بالإخلاص معرفة ، وأحيطك ببعض من أسراره ، فهز رأسه موافقا وتحدث قائلا : ما أنا إلا أذن صاغية وواعية ، ولم أجد في موقفنا هذا أدق ولا أرق من قول ابن عطاء الله في حكمه : الأعمال صور قائمة وأروحها وجود سر الإخلاص فيها[1] ، ورحم الله ابن عطاء فقد أصاب الحقيقة وأخلص لي ولك النصح ، وذلك أخي ألحبيب أن أعمالنا ليست سوى أشباح وأجساد لا روح بها ولا حياة فيها ، والإخلاص وحده هو الذي يمدها بالحياة وينفخ فيها الروح ، ويبعث فيها الحركة فكما أنه لا قيام للإجساد إلا بالأرواح ، وإلا كانت ميتة ساقطة كذلك لاقيام لأعمال الظاهر والباطن إلا بوجود الإخلاص فيها ، وإلا كانت صور قائمة وأشباحا خاوية لا قيمة لها ولا عبرة فيها.

عبرنا باب الروضة وأصبحنا بالداخل وما أسرع ما استقبلنا غلامان صغيران ، مع كل واحد منهما زهرة فمد صاحبي يده فأخذ الأولي فإذا هى تشير إلى قيمة الإخلاص ومنزلته ، وإذا هو يعلى قيمة المرء، ويرفع ذكره بين الناس و إن قل ماله ورق حاله وضعف سلطانه ولم لا ؟ وكيف لا ؟ والمخلص يتاجر مع ربه افتقر الى مولاه فأغناه، وأعلن إفلاسه فأعطاه،وتمرغ فى تراب الذل على بابه فآواه،وأسقط الخلق من نظره فتفضل عليه خالقه بالمنزلة والجاه،وتأمل اخى كلام ابن الجوزى رحمه الله لتدرك ما يفعله الإخلاص،حيث يقول : إخلاص المخلصين رفع قدر الوسخ – رب أشعث أغبر – ونفاق المنافقين صير المسجد مزبلة – لا تقم فيه أبدا – ولله دره ما أجمل قوله

(1) انظر : إيقاظ الهمم في شرح الحكم صـ 31 . ابن عجيبة . بتصرف .

و ما أعظم عقله ووعيه !،فهل أدركت أخى الحبيب ما يريد أن يقول ؟ إنها رسالة لى ولك تحمل عبق الإيمان ورحيق التقوى ليعلمنا ويزكينا،فالإخلاص جعل للأشعث الأغبر المدفوع بالأبواب قيمة ومنزلة عند رب الأرباب،حيث إنه لو اقسم على مولاه لأبره،أما النفاق – سلمنا الله وإياك – فقد حول أطهر مكان وأشرف بقعه الى مزبلة،ومسجد الضرار خير شاهد،فقد حذر الله المؤمنين أن يقوموا فيه ونفرهم من الاقتراب منه،فقال بكل وضوح : **" لا تقم فيه أبداً"** فتأمل هذا ففيه عمق وفقه ومددت يدى وأخذت الزهرة الثانية فـإذا هى لى ولك يا ابن الدعوة ويا حامل الرسالة،فهى تقدم لنا ولكل ناشط فى البلاغ مهموم بقضية النصر وآمال التمكين،المفتاح السرى الذى إذا وضع على مغاليق القلوب فتحها ، وتعطينا الدواء السرى الذى ينزل على مرض الأرواح فيعيد إليها الدفء و الشفاء و العافية ، أن مفتاحك السرى ودواءك السحرى الذى تفعل به فى القلوب ما تشاء،وتحلق به و بدعوتك إلى عنان السماء،هو الإخلاص،فأنت بالإخلاص كل شىء .وبدونه لا شىء ، وتعال معى نتأمل و نتعلم من سير الصالحين وأخبار المخلصين . فقد قيل لحمدون بن أحمد : مابال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ فقال – وقوله حق -: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ورضا الرحمن ونجاة النفوس،ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضي الخلق،ولله دره من حكيم وأنت أخى كذلك،ولهذا أدعوك بل ألح عليك حتى تعود فتقرأ هذا الكلام مرة أخرى،وأن تقف عند السؤال الذى طرح ، لأننى على ثقة تامة أن السؤال العظيم يستدعى جوابا أعظم ، ولهذا فتقديرى للمجهول الذى سأل،لا يقل عن تقديرى للإمام الذى أجاب: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ إنه سؤال يقرر حقيقة ويؤكد واقعا،فانت تتفق معى أن كلام الحسن البصرى وسفيان الثورى وابن المبارك و الإمام أحمد والفضيل بن عياض وشيخ الاسلام ابن تيمية وغيرهم عشرات بل مئات،أنت تتفق معى أن كلامهم دواء وحديثهم شفاء والعيش مع آثارهم نور وضياء وأنت كذلك تتفق معى فى أن أعمالهم شواهد صدق على عظمتهم وأن إخلاصهم كان سلاحهم الأقوى فى الانتصار على الشهوة والشيطان والمتربصين من داخل النفس وخارجها ، والله إنا

لنقرأ أو نسمع كلام أحدهم فينشط البدن كمن رفعت عنه الأغلال وأزيحت عنه القيود،وتنهض الروح منتعشة كعصفور أنهكه التعب فتساقط عليه حبات المطر،فانتفض ملحقا فى سماواته وفوق بساتينه،إى والله أيها الحبيب،إنا لنسمع كلام القوم أو نقرأه فتدب فينا الحياة بعد أن تقتلنا الأفات،ويعود إلينا الأمل بعد ان يحاصرنا اليأس،هذا فقط لسماع كلامهم فكيف لو راينا أعمالهم ؟ ثم يأتى الجواب يتهادى على ألسنه الربانين ليشرح : لماذا كان كلام القوم أنفع ،وعلاجهم للأرواح أعظم وأنجح .

نعم يأتي الجواب يحمل الأسباب :

أولا : لأنهم تكلموا لعز الإسلام،فإذا تكلم أحدهم فلله ولدينه ولرسوله.فا لله غايته والرسول قدوته،وعز الإسلام مقصده،وبلوغ الدعوة مداها هو مطلبه الذي يعيش به وله.

ثانيا : ولأنهم تكلموا لرضا الرحمن ، فإذا تفوه أحدهم بكلمة ، ، فإن همه واحد : ان يرضي عنه الخالق ولو سخط المخلوق – مهما كان موقعه – ليس داخلا في حسابه إن شعاره الذي يحيى به ويردده **مع كل نفس :**

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب .

ثالثا : ولأنهم تكلموا لنجاة النفوس فإذا تكلم أحدهم فإن الصدق عنوانه والإخلاص لله دافعه ، والتجرد باعثه ، لأنه يطلب النجاة ويرجو السلامة ، ولهذا فهو صادق مع نفسه صادق مع ربه صادق مع من حوله ولا نجاة للنفس بغير ذلك .

لهذا أخي الحبيب تكلم السلف فكان كلامهم دواء وحديثهم شفاء ينزل على الأرواح فيزكيها ، وعلى القلوب فيحيها ، ويسقط على النفوس فيداويها ، أما نحن أخي فإننا نتكلم ، ولكن فارق بين كلام وكلام ، بين كلام هو دواء وكلام هو عين الداء ، كلام يحمل السامع في لحظات فيدور به حول العرش وكلام لا يبرح يدور به حول الشوك والقش إن علة كلامنا اليوم – كما يوضحها هذا العبد الصالح – **تتمثل في آفات ثلاث :**

الآفة الأولى : أننا نتكلم لعز النفوس ، وفارق بعيد أخي بين من يتكلم لعز الإسلام ومن يتكلم ليعز نفسه ، والقاعدة هنا أن العزة لله جميعاً ، يمنحها من يشاء

ويمنعها من يشاء هذه واحدة ، والثانية أخي أن الإسلام هو عزنا ومجدنا وفخرنا ، فمن طلب العزة ففي الإسلام ما يطلب ، ومن يرجو مجداً أو فخراً ففي الإسلام وحده ما يرجو ، ورضى الله عن عمر إذ يقول : نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ، فتكلم إذ تكلمت لنصرة دينك والتمكين لدعوتك ، وانس نفسك قليلا تجد غب ذلك عن قريب عزاً تطلبه ومجداً ترجوه ونصر من الله أنت أحوج الخلق إليه وأجدر الناس به.

الآفة الثانية : أما الآفة الثانية في كلامنا أخي فهي أننا نتكلم لرضا الخلق ، ورضا الخلق غاية لا تدرك ، ووهم لا يتحقق ، بعكس الذين سبقونا بإحسان ، فإنهم طلبوا بكلامهم رضا الرحمن ، فباؤوا بالحسنيين : رضا الخالق وحب المخلوق ألست تقرأ أخي قول الله عز وجل : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم:96] ، إنها لك كافية ولقلبك شافية ، يقول ابن عباس : ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ : حبا ، ويقول قتادة : أى في قلوب أهل الايمان. وكان هرم بن حيان – من التابعين – يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم [1] إن هذا الحب الناشئ عن الإخلاص هو سلاحك أخي الداعية ، به تحارب شيطانك وبه تصل إلى قلوب الناس فتحولها وتغير مجراها وتضبط مسارها.

الآفة الثالثة : أما الآفة الثالثة في كلامنا أخى فهى : أننا نتكلم لطلب الدنيا ، وطلب الدنيا يصيب القلوب بالعمى والأذان بالصمم والأرواح بالصدأ ، واسال إن شئت طالب المال والمنصب والمرأة والكأس وغيرها من مفردات الدنيا وشهوات النفس ، سله بماذا يشعر؟ وبأي شيء يمكن أن يضحي في سبيل دنياه ؟ إنه والله يضحي بعمره ويخاطر بنفسه ، يكرر الأسفار ويركب الأخطار يجمع مالا ينتفع به غيره ، جاء في بعض الأخبار : الرزق مقسوم والحريص محروم ، ابن آدم : إذا أفنيت عمرك في طلب الدنيا فمتي تطلب الأخرة ؟ وكان عبد الواحد بن زيد رحمه الله يقول : الحرص حرصان : حرص نافع وحرص فاجع ، فأما النافع : فحرص المرء علي طاعة الله ، وأما

---

(1) تفسير ابن كثير عند تفسير الآية .

الفاجع فحرص المرء علي الدنيا . فكيف أخي الحبيب نرجو السلامة ونطلب الصدق ونتصب أئمة للخلق ودعاة إلي الخير وقد تمكنت منا الدنيا إلي هذا المدي ؟

لأجل كل هذا أخي تكلم القوم فانتفعوا ونفعوا ، وتكلمنا فعاد كلامنا حجة علينا لا لنا ، ونسأل مولانا أن يبيض برحمته سود الصحائف وأن يتجاوز بعفوه عن تقصيرنا، وأن يجبر في الدارين كسرنا .

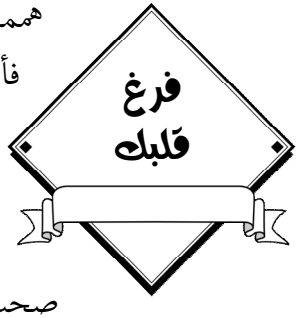

هممت أن انطلق يشدني عبير الإخلاص ويتملكني سحره ، فأخذ صاحبي بيدي وقال : قف واقرأ ، ورأيته يشير بيده نحو لوحة من نور ما رأيت مثلها في بهائها ووضوحها ، وإذا عليها بخط أنيق مقروء : فرغ قبلك أولا ثم تقدم ، فأدركت أن هذا هو أول الطريق ، وأنها البداية التي لو صحت ، لصحت معها النهاية ، ولكنها لو فسدت ، فسدت معها الخاتمة ، وأنه لا ينبغي لعبد أن يدخل هذه الروضة المباركة ، وأن يشارك أهلها محياهم ومماتهم ، إلا وقد غسل قلبه وطهر فؤاده . ونظر في داخله ، فأخرج كل ما سوى الله تعالي ، وبغير هذه الخطوة ، فإن الطريق مسدود ، والداخل إلي رحاب هذه الروضة موقوف ومردود ، وهنا أخي الحبيب تداعت إلي ذهني أقوال القوم وأحوالهم ، فأبصرت ما أبصروا ، وأدركت ما أدركوا ، وفقهت كذلك ما فقهوا ، نعم أخى ، أدركت أن الله تعالي يغار ، وأن غيرته علي قلب عبده بلا حدود ، أدركت أنه لا يقبل بحال أن يطلع علي قلب عبده فيجد فيه حبا يفوق أو يساوى حبه ، فإن وجد ذلك ترك عبده وما أحب ، أدركت أخى أن مولاى لا يريد له شريكا في قلبك أيا كان هذا الشريك ، أبا أو ابنا ، ولدا أو بنتا ، أخا أو زوجة ، مالا أو تجارة ، ولك أن تتامل معي هذا الخبر : يقول عمر بن أبي حسان : كنت مارا في البادية ، فإذا أنا براهب قد أحرقته السموم والرياح ، فقلت له : عظنى ، فقال : احذر فإنه غيور ، لا يحب أن يرى في قلب عبده أحدا سواه [1] ياالله سبحانك ، تريد عبدا خالصا لك ، حتى تأذن له في الدخول

---

(1) ذم الهوى . صـ72 . ابن الجوزى .

عليك ، وعبيدك تنوشهم الشياطين وتحوطهم الشهوات ، وتفسد عليهم الدنيا قلوبهم ، ولا حول لهم ولا قوة إلا بك ، فاصبر أخى وصابر ، بل رابط لعل مولاك يتفضل بالمعونة فيسهل عليك الصعب ، ويهون عليك المشقات ، ويذلل لك الطريق .

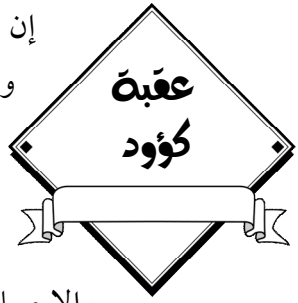

إن أعظم عقبة في سبيلك أخي نحو إخلاص القلب لربك وإسلام الوجه لمولاك هي : الدنيا أولا ، ثم فتنة الدنيا ثانيا ، ثم زخرف الدنيا ثالثا ورابعا وخامسا ، إنها الآفة التي إذا سكنت القلب باضت وفرخت ، وطرد بومها عصافير الإخلاص ، وعلا نقيق غربانها علي تغريد بلابل الإيمان والإحسان ، نعم أخى الحبيب ، إن ضرة الآخرة إذا سكنت القلب حجب ظلامها أنوار التجرد ، وأحرقت سمومها أشجار اليقين وزهور الإخلاص ، وآية واحدة أخى من عشرات بل مئات الآيات – إذا أردت – نشرح لك حقيقة الدنيا ، وتفضح أمامك زورها وبهتانها ، وتكشف علي الملأ دجلها وزيفها ، فاقرأ معي قول ربك : ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ [الحديد:20] . فانظر أخى جمال الآية وعمق مدلولها وروعة تصويرها ، وتأمل معي هذه المفردات التي استخدمها القرآن الكريم ليرسم لنا صورة الدنيا ، ويقرب إلينا حقيقتها : لعب ، لهو ، زينة ، تفاخر ، تكاثر ، ثم في النهاية حطام يؤكد أنها : متاع الغرور، وهذا المتاع ليس حقيقة في ذاته ، إنما يستمد وجوده من الغرور والخداع ، والمؤمن يستعلي بحسه علي هذا الغرور الزائل والمتاع الفاني، حتي يسلم قلبه لربه ويخلص وجدانه لمولاه ، وهذا هو الطريق الذى لا طريق سواه ، لمن أراد النجاة ، واسمع إلي أحمد بن أبى الحوارى يقول : سأل محمود أبا سليمان وأنا حاضر : ما أقرب ما يتقرب به العبد إلي ربه عز وجل ؟ فبكى أبو سليمان ثم قال : مثلي يسأل عن هذا ؟ أقرب ما تتقرب به إليه أن يطلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو [1]. إن للقوم نوادرا ، فسبحان الذي فطرهم ، وعن

---

(1) ذم الهوى . صـ70.

الدنيا فطمهم ، فخرجت الحكمة من أفواهم ، وتفجرت علي ألسنتهم ، إن هذا العبد الصالح سئل من أقصر الطرق إلي الله فبكى متهما لنفسه ثم قال : مثلي يسأل عن هذا ؟ وبكاؤه وسؤاله هذا هو عندى أقوى ما في الخبر ، وأروع ما فيه ، ثم جاء جوابه الذى يسقط علي القلوب كما تسقط قطرة الندى على ريشة عصفور فينتفض : أن يطلع علي قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو ، سبحان الله ، أن تطلبه هو وحده ، رضاه هو وحده ، حبه هو وحده ، وجهه هو وحده وكفى ، لأن ما عداه سيكون شركا يقدح في توحيدك ، ورياء يشوس صفاء قلبك ، ويلون نقاء عقيدتك ، ووالله لقد تعب القوم فأتعبوا من خلفهم ، فمن لتقصيرنا سوى الله ؟ ومن يجبر كسرنا إلا الجبار الذى يجبر الكسور ولكنه يعاقب علي التقصير ؟ .

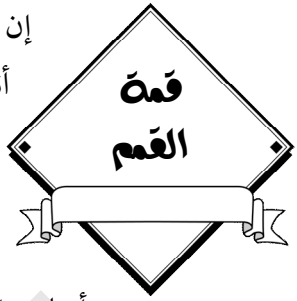

إن أهل هذه الروضة الذين هم من مواليدها ، باعوا الله أنفسهم ، وفرغوا له قلوبهم ، ووقفوا عليه حياتهم ، فإذا تكلموا فلله ، وإن عملوا فلله ، وإن قاموا أو قعدوا فلله ، وإن باعوا أو اشتروا فلله ، وإن أكلوا أو شربوا فلله ، استعملهم مولاهم في طاعته ، فأسلموا له الوجه وأخلصوا له القصد ، فهم الناس ولا ناس سواهم ، صلاتهم لله ، ونسكهم لله ، ومحياهم ومماتهم لله ، وقفوا عند همهم وحاسبوا أنفسهم كما يحاسب الشريك شريكه أو أشد حتى لانت واستقامت ، وإجمالا أخي ، إنها همم تدور بأصحابها حول العرش فرعي الله دينا رباهم ، ونبيا زكاهم ، ومنهجا أخذ بهم نحو تلك الآفاق العالية ، حكى ابن الجوزى رحمه الله تعالي في ذم الهوى عن إبراهيم الخواص قال: قال لى محمد بن الفضل : ما خطوت من أربعين سنة خطوة لغير الله ، وأربعين سنة ما نظرت فى شيء استحسنته حياء من ربى [1] **ولى هنا أيها الحبيب وقفتان** :

أما الأولى فمع قوله : ما خطوت من أربعين سنة خطوة لغير الله ، إنه الجهاد مع النفس حتي تستقيم في القصد ، فهو لا ينقل قدما إلا بنية ، ولا يمضى خطوة إلا بنية ،

---

(1) صـ71.

يقف مع كل خطوة ليسأل نفسه : هل هى لله ؟ أم لغير الله ؟ فإن كانت لله أمضاها ، وإن كانت لغيرة خلاها ، إنها قمة في جهاد النفس لا تتيسر لمن أسلم زمامه لهواه . ووضع مقوده في يد شهواته ، ويزيد الأمر وضوحا وروعة قول الحسن ﷺ: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ، ماذا أردت بكلمتى ؟ ماذا أردت بأكلتى ؟ ماذا أردت بشربتى ؟ والفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه [1] .

وأما الثانية أخى فمع قوله: وأربعين سنة ما نظرت فى شيء أستحسنه حياء من الله عز وجل ، أتدرى أيها الحبيب ماذا يقصد ؟ إنه الورع ، وترك المباح الحلال حذرا من الوقوع في الحرام ، فأبناء هذه الروضة يجعلون بينهم وبين الحرام هامشا من الحلال درءا للشبهة وخوفا من الوقوع في الحمى ، فإذا رزقت مثقال ذرة من ورع فقد أوتيت خيرا كثيرا ، حكى ابن الجوزى في المنتظم أن رجلا جاء إلي العمرى فقال له : عظنى ؛ فأخذ حصاة من الأرض فقال : زنة هذه من الورع يدخل قلبك خير لك من صلاة أهل الأرض [2]. فخذ أيها الحبيب لله واترك لله ، تفتح لك الروضة أبوابها ، وتجد عند ربك العوض ، في مقام أسمى ومنزل أعلي وحياة باقية. **وأخرى هى أشد وأقوى** :

ثم اعلم أيها الحبيب أن إخلاص القلب وإسلام الوجه ورسوخ القدم علي هذه الطريق لن يحصل لك ، ويتحقق فيك إلا أن يكون قلبك صفرا مما سوى الله عز وجل ، بمعنى أن يطلع مولاك علي قلبك فلا يجد سواه ، وأن ينظر فى أنحائه فلا يبصر غيره ، وبمعنى آخر وأخير أيها الحبيب أن يكون قلبك عامرا بالله ، خرابا مما سواه ، فتكون أنت بالله ولله ومع الله ، فإن حدث هذا ، فأبشر ثم أبشر لقد أدركت ما ترجو ، وأصبت هدفك ، ويحق لك عندها أن تبدل شهادة ميلادك ، ومحل إقامتك ، لتصبح من مواليد روضة الإخلاص وواحدا من أهلها ، فهل تستطيع ؟ إن الطريق إلى ذلك واحد وواضح ، إنه يمر عبر اختبار دقيق ومحك صعب ، ولكنه والله سهل على من يسره الله تعالي له ،

---

(1) الإحياء جـ4 صـ620.

(2) جـ2 صـ124.

وسهله عليه ، فاعرض نفسك على هذا الامتحان الربانى والمحك القرآنى ، الذى وضعه الله عز وجل لمن أراد الوصول وطرق بكلتا يديه باب القبول ، يقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:24] هذا هو الابتلاء ، هذا هو المحك ، من أجل التمحيص والتمييز ، فهل تجرب؟ حاول والله معك ، أقبل ولا تخف ، إنها والله طريق الأنبياء والأصفياء والصديقين والشهداء ، وتذكر أخى ، تذكر مصعب وسلمان ، وتذكر ابن تيمية والعز بن عبد السلام ، وتذكر نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى ، تذكر الإمام البنا والشيخ أحمد ياسين ، نعم تذكر هؤلاء وغيرهم كثير من أهل التجرد وأصحاب القلوب العامرة بالله وحده ، نذكر هؤلاء واعلم أن مولاك عز وجل قد وضع كل الروابط والصلات فى كفه ، ووضع الله ورسوله ودينه ودعوته في الأخرى ، فأى الكفتين عندك أرجح؟ يقول سيد رحمه الله : (**الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة – وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج – والأموال والتجارة – مطمع الفطرة ورغبتها – والمساكن المريحة – متاع الحياة ولذتها – وفي الكفة الأخرى : حب الله ورسوله ، وحب الجهاد في سبيله ..... الجهاد مجردا من الصيت والذكر والظهور ، مجردا من المباهاة والفخر والخيلاء ، مجردا من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه وإلا فلا أجر ولا ثواب**) [(1)] .

إن الوصول بالقلب إلي هذا الأفق أخى الحبيب ، والبلوغ به هذا المنزل يتطلب جهادا وبذلا ورباطا ومصابرة ، ثم بعد ذلك ستجد الأمر متاحا ، وليس بمستحيل ، فربى سبحانه أكرم من أن يكلف النفوس شيئا لا تطيقه ، أو أن يطلب منها ما لا تملكه ، وما أشار الخالق سبحانه إلى هذا الأفق العالى من التجرد والإخلاص إلا وهو يعلم أن النفوس تطيقه وبشيء من الصبر والمصابرة يمكن لها أن تبلغه ، ثم تابع أخي الحبيب مع

---

(1) الظلال حـ3 صـ1615.

سيد رحمه الله وهو يقول : (**وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده ، وإنما تطالب به الجماعة المسلمة والدولة المسلمة ، فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع علي مقتضيات العقيدة في الله ، ومقتضيات الجهاد في سبيل الله ، وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف ، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه – فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها – وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فى فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال ، وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها ، لذه الشعور بالاتصال بالله ، ولذة الرجاء فى رضوان الله ، ولذة الاستعلاء علي الضعف والهبوط والخلاص من ثقلة اللحم والدم والارتفاع إلي الأفق المشرق الوضيء ، فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففى التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة في الخلاص والفكاك**) [1].

إن أهل هذه الروضة أيها الحبيب ، ابتلوا بالمال والتجارة فختاروا الدعوة ، وابتلوا بالزوجة والولد . فاختاروا الدعوة ، وابتلوا بالآباء والأبناء والعشيرة ، فاختاروا الدعوة ، واجتازوا الاختبار ومروا سالمين علي المحك ، فحق لهم أن يحلقوا بإخلاصهم وتجردهم في سموات علا ، وآفاق لاتطال ولا ترجى إلا لأصحاب الهمم العالية والنفوس الحرة المتوثبة ، فحاول أن تلحق بالركب ، واحذر أن تتخلف ، فيلحق بك التهديد الذى تكرر مرتين فى ختام الآية ، لينتبه من له قلب ، **ويعي من ألقى السمع وهو شهيد** :

الأول : في قوله تعالي : ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ﴾ [التوبة:24]

الثاني : فى قوله : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:24]

فنحن إذن أمام خيارين لا ثالث لهما : إما تجرد لله وصبر علي مشاقه ، وإما تربص لأمر الله الذى لا يتخلف ، وانتظار مصير الفاسقين ، وهذا جزاء القاعدين المعرضين ، فأقبل أخى ولا تتردد والله معك لا يضيع عمل عامل ، ولا يبطل سعي ساع ، وهو المستعان وعليه نتوكل وبه نعتصم ، وإليه وحده نلجئ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(1) نفس المصدر .

openkandil.com

لعلك الأن أخى بعد هذه السياحة النظرية ، تشتاق إلي مثال يترجم حلو المقال وجميل الكلام ، ويحوله إلي واقع مشرق متألق ، وهذا حقك ، ولن أتأخر عنك ، فنحن فى هذا الموضع نحتاج إلي مثال يؤكد لنا أن التجرد بهذا المستوى – علي مشقته – ليس مستحيلا ، وأن هناك رجالا صدقوا مع الله ، فدخلوا روضة الإخلاص ، تنسموا عبيرها ، واستنشقوا رحيقها ، ثم عادوا إلينا بمشاهد جديدة ، ولوحات فريدة لا تكاد تحدث ، وإن حدثت فصعب أن تكرر ، فتأمل هذه اللوحة ، وتوقف أمامها ، واحذر علي عقلك من روعتها ، وعلي قلبك من شدة وقعها . وعلى عينيك من وهج بريقها ، فوالله إنها لأحدى آيات القوم وعجائبهم ، يقول عبد الواحد بن محمد الفارسى : لقيت إبراهيم الجبلي بمكة بعد رجوعه إلى وطنه وتزوجه بابنة عمه ، وكان قد قطع البادية حافيا ، فحدثنى أنه لما رجع إلي بلده وتزوج شغف بابنة عمه شغفا شديدا ، حتي ما كان يفارقها لحظة ، قال : فتفكرت ليلة في كثرة ميلى إليها وشغفى بها ، فقلت : ما يحسن بي أن أرد القيامة وفى قلبي هذه ، فتطهرت وصليت ركعتين وقلت : سيدى رد قلبي إلي ما هو أولى ، فلما كان من الغد أخذتها الحمى فتوفيت يوم الثالث ، ونويت الخروج حافيا من وقتي إلي مكة [1] .

ما رأيك أخي الحبيب ؟ لا لا تتكلم . ولكن بالله عليك أعد القراءة مرة أخرى ، وأظن أن أفضل ما نقوم به أن نضع تحت هذه اللوحة عبارة : بدون تعليق ، فإنها ليست بحاجة إلي تعليق يفسد مدلولها ويشوش نقاءها ، فهل تشاركني هذا الرأى ؟ ولكن لي قلم يأبي إلا أن يتكلم ويعلق ، لينال شرف القرب ، ويحظى بشيء من الثواب والأجر ، هو إليه فقير ، وإن كان به غير جدير ، فتأمل أخى : رجل تعلق قلبه بزوجته ، أحبها وهام شوقا بها ، ولا يعرف الشوق إلا من يكابده ، فعاني في حبه لها وشغفه بها ما أتعب فؤائده وهد قلبه ، وملآ اقطار نفسه ، وحب الزوجة هو الحب الحلال الذى لا يرقي إليه حب ، ولكن ما هو الحال إذا تنازع في القلب حب الخالق وحب المخلوق ؟ لقد

---

(1) ذم الهوى .صـ71.

استشعر هذا العبد الصالح الحرج وأدرك بقوة يقينه وروعة إيمانه أنه ليس من الأدب مع الله في شيء ، وليس من الإخلاص له في شيء ، وليس من التجرد له في شيء أن يزاحم مخلوق – أيا كان – ربه في تلك المضغة التي بها صلاح الإنسان وفساده ، لقد أورثه التوحيد حساسيه مفرطة ضد الشرك ، وأورثه الإخلاص صفاء لا تشوبه شائبه ، فلله دره ، ثم تأمل أخى حال هذا العبد الصالح حين تطهر ودعى ربه ومولاه قائلا : سيدى رد قلبى إلي ما هو أولى . يالله !!! رد قلبي إلي ما هو أولى ، إن ربك أولي بك أخي ، ومعبودك أجدر بقلبك ، وسيدك هو الأليق بخدمتك ، ولن تجد طعم الإيمان وحقيقة الإخلاص إلا بمثل هذا التجرد لله وتخلية القلب عما سواه .

لم يتجاوز صاحب البردة رحمه الله الحقيقة عندما أنشد ناصحا لي ولك ، وواصفا طريق الإخلاص فقال :

وخالف النفس والشيطان واعصهما

وإن هما محضاك النصح فاتهم

إنه رحمه الله يحذر من تحالف غير مقدس ، لهدف غير شريف ، نعم ، تحالف النفس التي بين جانبيك والعدو الذي يجرى منك مجرى الدم في العروق ، فانتبه واعلم أن أول خطوة في الطريق إلي المعالي أن تترك نفسك خلفك ثم تقبل ، فإن الملائكة تنادي عليك : خل نفسك وتعال ، نعم أخى ، خل نفسك أي دع حظوظها ، ودع شهواتها ، وفارق هواها ، ثم أقبل علي ربك فإن الطريق ممهدة والأبواب مشرعة ، وبغير هذا ، بغير مخالفة النفس ومفارقة هواها فلا أمل في الوصول ولا رجاء في القبول ، وماذا ترجو أيها الحبيب من أمارة بالسوء ، رضيت أن تكون عضوا في تحالف هي أحد أضلاعه الأربعة ؟ تحالف يمثله : إبليس والدنيا والهوي ورابعهم هذه الأمارة التي في صدرك ، كيف ترضى عنها وهي خنجر في ظهرك ؟ تدافع الشيطان وتجاهد الهوي وتدفع الدنيا ، وهي تمكر بك وتكيد لك ، وتعين عليك ، لقد أوتيت من مأمن ، ويوشك أن تهلك من حيث أملت النجاة ، ودواؤك أخي فيما وصفه لك الصالحون قبلك ، بالقول تارة وبالعمل تارات ، فاتهم نفسك وظن بها الشر ، وإياك أن ترضي عنها ، فإن الرضي عنها أول خطوة في طريق

الهلاك وتزكيتها انتحار ، فحذار ثم حذار ، وتأمل حال الفضيل بن عياض رحمة الله وحاول أن تمضي في أثره ، وأن تنسج علي منواله ، فمنوال الصالحين سراج المتقين ، وانظر إليه كيف يتهم نفسه ويوبخها ويتهمها ويبغضها في الله عز وجل ، يقول رحمه الله في خلوته يخاطب نفسه : (**هيه ... وتريد أن تسكن الجنة ، وتريد أن تجاور الله تعالي في داره مع النبين والصديقين والصالحين ، وتريد أن تقف المواقف مع الأنبياء ، مع نوح وإبراهيم ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ، ... يا أحمق بأي عمل ؟ وبأي شهوة تركتها لله ؟ وبأي غيظ كظمته لله ؟ وبأي رحم قاطع وصلتها وبأي قريب باعدته في الله؟ وبأي بعيد قربته في الله ؟ بأي حبيب رأيته يعمل بما يكرهه الله فأبغطته في الله ؟ ولكن بعفوه ورحمته نرجوه، نرجوه مع إساءتنا ، ولا نقول أحسنا ، ولكن نقول أسانا وبئس ما صنعنا**)[1] .

أرايت أخي الحبيب ؟ هكذا كان الفضيل رحمه الله ، يراجع نفسه حينا بعد حين ، يحاسبها ويسألها ، يوبخها ويؤنبها ، لتستقيم علي الطريق ، وتستوي علي الصراط وتقف علي عظيم ذنبها وتقصيرها في حق مولاها ومربيها عز وجل ، وبمثل هذه المحاسبة أدرك القوم ما يريدون ووجدو ما يطلبون ، فلله درهم ولا عزاء للقاعدين والمقصرين .

قال صاحبي يحاورني : ما رأيك لو جعلنا في هذه الروضة ميدانا للفضيل ، تذكيرا به وتكريما له ؟ ميدان يفيء إليه الناس ويستظلون بظله ويأكلون من ثمره ، فإن ظله وارف وثمرة يانع ، فوقعت فكرته من نفسي موقعا حسنا ، وقلت مجاوبا: نعم ما رأيت ، فالرجل بهذا جدير ، بل إنه لجدير بما هو أعظم من ذلك ، فالفضيل إذا ذكر المخلصون فهو في صفهم الأول ، وإذا ذكر المتقون فهو كذلك في صفهم الأول ، وإذا ذكر أهل الورع فإن القدم بالقدم والكتف بالكتف ، وسبحان الذي خلق هذه النفوس وألهمها هذه التقوي ، وسبحان الذي خلق الفضيل ورزقه كل هذا الأدب ، فعجائب الفضيل لا تنتهي ، ومدرسته الربانية لا تغلق أبوابها ، فتعال الآن وانظر إليه يمرن نفسه ويدربها ، لتستوي علي

---

(1) مختصر تاريخ ابن عساكر . حـ20. صـ305.

سوقها وتستقيم علي الطريق ، لقد ازدحم عنده طلاب الحديث فلما انصرفوا ، راح يخاطب نفسه قائلا : ها هم أولاء يجتمعون حولك ، يكتبون الحديث عنك ، .... بخ بخ : (**لقد تفرغت للحديث ، ويتنفس طويلا ثم يقول : ويحك .... أنت تحسن الحديث ؟ هل أنت أهل لأن يحمل عنك ؟ استح يا أحمق بين الحمقان ، لولا قلة حيائك وسفاهة وجهك ما جلست تحدث ، وأنت وأنت ... أما تعرف نفسك ؟ أما تذكر ما كنت ؟ أما تذكر كيف كنت ؟ أما لو عرفوك ما جلسوا إليك ، ولا كتبوا عنك ولا سمعوا منك ابدا**) [1] .

لا تنس أخي أنك لا زلت في روضة المخلصين ، ولا تتعجب وأنت في ميدان الفضيل ، فإن ميدانه مليء بالعجائب يسع كل من شم رائحة الإخلاص ، فراح يحاسب نفسه طلبا للنجاة ، ويراقبها أملا في الوصول إلي بر السلامة ، إنه يواصل حديثه إلي نفسه ، ويخاطبها محاسبا لها ومعلما لنا : (**ويحك : أما تذكر الموت ، أما للموت في قلبك موضع ؟ أتدري متي تؤخذ فيرمي بك في الآخرة ؟ فتصير في القبر وضيقه ووحشته ؟ أما رأيت قبرا قط ؟ أما رأيت حين دفنوه ؟ أما رأيت كيف سلوه – أنزلوه – في حفرته وهالوا عليه التراب والحجارة ؟**) [2] .

إنها طريق الفضيل أخي وطريقته ، وهي طريق يري سالكوها أن النفس عقبة كؤدا ، وأن من أراد وجه ربه فعليه أن يقتحم هذه العقبة ، وتذكر أخي دائما هذا النداء العلوي: خل نفسك وتعال ، أي فارق نفسك بخطوة ، وبعدها تجد ربك أقرب إليك من نفسك ، وأبر بك من والدك ، وأحنى عليك من أمك ، وسبحان ربي وسعت رحمته كل شيء،وهى تسع المجاهدين الأولين ، وتسع إن شاء الله كذلك القاعدين من أمثالنا والمقصرين .

إن ميدان الفضيل الذى مررت به أخى ، فرأيت ما رأيت ، وسمعت ما سمعت ، ليس للرجال فقط ، بل إن للنساء فيه مكانا وأى مكان ، لقد أدركنا فيه نساء بهمم الرجال ، همم نفتقدها اليوم فى الرجال والنساء علي السواء ، وهو ما جعلنى أردد علي الدوام أسفا وحسرة : إن لم نكن أيها

---

(1) حلية الأولياء .8/ 86.
(2) نفسه .

الأجباب ، كرجال السلف فلنكن كنسائهم ، وتأمل معى هذا الخبر ، وانظر حال هذه المرأة،وكيف قامت علي نفسها ، بالتهذيب والتأديب ، ودوام الحساب والمقت فى جنب الله تعالي ، يقول وهب بن الورد : بينما امرأة في الطواف ذات يوم وهى تقول : يارب ذهبت اللذات ، وبقيت التبعات ، يارب سبحانك ، إنك لأرحم الراحمين ، أما لك عقوبة إلا النار ؟ فقالت صاحبة لها : ياأخية ، دخلت بيت ربك اليوم ؟ فقالت : والله ما أرى هاتين القدمين – وأشارت إلي قدميها – أهلا للطواف حول بيت ربي عز وجل ، فكيف أراهما أهلا أطيء بهما بيت ربي عز وجل ، وقد علمت حيث مشتا وأين مشتا ؟ [1] ، إن هذه الأمة الصالحة تعرف والله من أين تبدأ الطريق . وتدرك تماما أن الخطوة الأولى نحو انطلاقة لا توقف بعدها ، وصعود لا هبوط بعده هى : اتهام النفس ، وعدم العجب بلعاعة من العمل قد تقبل وقد ترد ، ولن يرضى عن نفسه إنسان إلا وتلقفه الشيطان ، ثم بعد ذلك يكون الطوفان المغرق والسقوط المهلك .

إن أقدام القوم قد رسخت في الروضة وتمكنت ، وإنما رسخها ومكن لها إحساس دائم بظلم النفس ، وشعور عميق بمدى التقصير في جنب الله عز وجل ، ومعرفة بالنفس تضعها في مكانها اللائق بها وبمثلها ، عرف كل منهم حقيقة نفسه ، فاتخذها عدوا ، وأعد لها العدة ، وواجهها بكل ما أوتى من قوة ومن رباط الخيل ، وقلب إن شئت طرفك لترى فى رحاب الروضة رجالا ونساء ، شبابا وشيوخا ، دخلوها فاستوطنوها ، وذاع فيها صيتهم ، واشتهر أمرهم ، فهذه آثارهم تدل عليهم ، فالله تعالي شهدها ، والملائكة حفظتها ، والأجيال من بعدهم وعتها فاهتدت بهديها واتعظت ، ونحن اليوم أحوج ما نكون إليها لنربي نفوسا ناشزة ، وأرواحا نافرة ، أوشكت أن تصدأ وتسقط في الطريق كأوراق الخريف الذابلة ، فانظر أخي إلي يمينك تجد مالكا بن دينار قائما يقول : إذا ذكر الصالحون فأف لي وتف ، وعلي يسارك لو نظرت تجد الفضيل يهتف بك : من أراد أن ينظر إلي مراء فلينظر إلي ، سبحانك ربى لا إله إلا أنت ، تزكى من تشاء وتدسي من

---

(1) ذم الهوي . صـ42 . ابن الجوزى .

تشاء ، وترفع بالإخلاص أقواما ، وتضع بالعجب والرياء آخرين ، فإذا قال مالك بن دينار : إذا ذكر الصالحون فأف لى وتف ، فماذا أقول أنا ؟ وماذا تقول أنت ؟ وإذا قال الفضيل بن عياض : من أراد أن ينظر إلي مراء فلينظر إلي ، فماذا أكون أنا ؟ وماذا تكون أنت ؟ نعم ماذا نقول أخى وليس لنا في الطريق مع القوم قدم تسعى ولا رجل تمشي ؟ وإلي الله نشكوا قعود الهمم وخور النفوس ، وانظر خلفك تجد العلاء بن زياد في حوار مع رجل آخر يجدر بك أن تسمعه ، فلك فيه عبرة وأنت له أهل ، يقول له الرجل : رأيت كأنك في الجنة ، فقال له العلاء : ويحك أما وجد الشيطان أحدا يسخر به غيرى وغيرك ؟ يالله سبحانك ما هؤلاء القوم ؟ من علمهم ورباهم ؟ من الذى أدبهم واصطفاهم ؟ إن العلاء لم ينخدع بقول الرجل ، واعتبرها من الشيطان سخرية واستهزاء به أولا ، وبالرجل ثانيا ، فقال ما قد علمت ، وبعضنا أخى لو قيل له مثلها ، لقعد عن العمل وودع الطاعة وهجر المسجد والقرآن والصحبة ، وكأن هذه الرؤية صك غفران يضمن به مقعده في جنات ونهر عند مليك مقتدر ، وانظر أمامك الآن أخى تجد سفيان يأتيك بالعجائب ، كان رحمه الله إذا قيل له : رئيت في المنام يقول : انا أعرف بنفسى من أصحاب المنامات [1] .

فدعك أخي من المنامات ، ولا تنخدع ، فأنت أعلم بنفسك ، وهذه سير القوم فاقتف آثارهم والزم غرزهم ، تجد لك في الروضة بين القوم مكانا مع رجال ونساء ، صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، إن لم تعمل عملهم لن تلحق بهم ، وعندها ستشعر بالندم وليته ينفع .

قال صاحبي : وهل للقوم علامة يعرفون بها ؟ أو إشارات تدل عليهم وترشد إليهم ؟ قلت له أحاوره : لا تتعجل ، فإنك سألت عن شيء أنت منه قاب قوسين أو أدني ، وعما قليل ستمر بك عدة علامات علي الطريق ، تدلك في الروضة وتهديك ، وترشدك إلي سمات القوم لتعرفهم

(1) هذه الأخبار منقولة عن : أصول الوصول . صـ97. الشيخ / محمد حسين يعقوب.

وتتعرف بهم ، وما هي سوى لحظات حتي مرت أمام أعيننا أول علامة فقلت : الآن أيها الرفيق الطيب والصاحب الناصح ، جاء ما تطلب فانظر ، **فنظر فقرأ :**

تلك أيها الحبيب أبرز علامات أهل الروضة ، وأخص صفاتهم ، وأوضح دليل إلي منازلهم ، ولعك قد مر بك طرف من الحديث عنها قبل قليل ، ولا مانع أن أزيدك ، ففي الزيادة – كما قيل – إفادة ، والتكرار يعلم الأبرار ، فاعلم أن أول صفات القوم ، سوء الظن بالنفس ، وهل يليق بالكبار الكرام حسن الظن بالنفس ؟ لقد كان الصالحون أبدا أخي الحبيب يتهمون أنفسهم ، بل إن أحدهم لينظر إلي نفسه ، فيراها شر ما خلق الله تعالي وما برأ ، فيبغضها ويمقتها في جنب الله عز وجل ، لما يعلم عنها ويرى منها ، ولعل هذه الخصلة هي التي بلغت بهم ، فلن يبلغ أحدهم منازل القوم ، ويبصر خيامهم ، ويحل بساحتهم ، حتى يمقت نفسه في ذات الله تعالي ويدرك يقينا أنها أعدى عدوه ، وأظهر جند الشيطان عليه ، وقف معى أيها الحبيب أمام هذه اللوحة : كان المسور بن مخرمة لا يقوى علي سماع شيء من القرآن لشدة خوفه ، ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية ، فيصيح الصيحة فما يعقل أياما ، حتى أتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:85،86] . فقال : أنا من المجرمين . ولست من المتقين ، أعد علي أيها القاريء ، فأعادها فشهق شهقة فلحق بالآخرة[1].ما تقول أخى في هذا المشهد ؟ وما رأيك في قوله : أنا من المجرمين ، ولست من المتقين ؟ هكذا يرى الصالحون أنفسهم . وهكذا ينظرون إليها ، فكيف نراها نحن ؟ كيف أراها أنا ؟ وكيف تراها أنت ؟ إن أحدنا في زمن الزيف والرياء والكذب والنفاق ، يقرأ هذه الآية وأمثالها ويقسم بلسان الحال والمقال أنه من المتقين والله أعلم بحاله ، إن حسن الظن بالنفس يسوقك إلي أمن يأتيك الهلاك من قبله ، وسوء الظن بها يسوقك إلي خوف

(1) الإحياء :4/ 284 .

يأتيك بالأمن يوم يفزع الناس ، فاتهم نفسك أخي لتسعى جاهدا – كما سعي القوم – في فكاكها – ولا تغتر بعمل لا تدري عند الله تعالي موقعه ، فتعجب صاحبي مما راى ومما سمع ، فقلت له : أزيدك : كان عطاء السلمى من الخائفين ، ولم يكن يسأل الله الجنة ابدا ، إنما كان يسال الله العفو ، وقيل له في مرضه : ألا تشتهى شيئا ؟ فقال : إن خوف جهنم لم يدع فى قلبى موضعا للشهوة . إن هذا الرجل الصالح ما رفع رأسه إلي السماء ولا ضحك اربعين سنة ، وإنه رفع رأسه يوما ففزع ، فسقط فانفتق في بطنه فتق ، وكان يمس جسده في بعض الليل مخافة أن يكون قد مسخ ، وكان إذا أصابته ريح أو برق أو غلاء طعام . قال : هذا من أجلي يصيبهم ، لو مات عطاء لاستراح الناس .

يالله سبحانك !!! أى أفق هذا ؟ أظن أن في هذا أيها الحبيب ما يكفي ، فإن أحوال القوم تفضح عجزنا ، وتنشر علي الملأ تقصيرنا وسوء فعالنا ، فلنمض إلي علامة أخرى من علامات أهل الإخلاص ، فمضينا وما هي إلا لحظات حتي بدت علي الطرق علامة ، فأشرت إليه أن انظر ، فنظر فقرأ .

ليس في قاموس الصالحين أخي الحبيب أن يفرحوا لمدح أو يحزنوا لذم ، فالمخلصون من أهل هذه الروضة يستوى عندهم المدح والقدح ، والحمد والذم بل إن خوفهم من المدح يطغى علي كراهيتهم للذم ، ولعل هذا فى زمن الرياء والنفاق من العجائب ، ولكن الصالحين لا يحفلون بمن ذمهم ، لأنهم ابتداء يتهمون أنفسهم ، ويعلمون منها مالا يعلمه أحد ، فكيف يكذبون يقينهم بحقيقة أنفسهم لقول قائل لا يعرف عنها شيئا ؟ إن من الحمق أن تصدق في نفسك مدح مادح لا يعلم عنك ما تعلمه أنت ، أما الهم الأكبر عند الصالحين فهو المدح ، لأن المدح عندهم لا يتعدي ما قاله عمر رضي الله عنه : المدح هو الذبح ، فالممدوح والمذبوح سواء ، وهى والله الحقيقة ، **فالمدح خطر من وجهين :**

الأول : أنه يملأ المرء كبرا وعجبا وكلاهما مهلك .

الثاني : أن عزور المرء بثناء الناس عليه يقعده عن العمل ، لأنه إنما يشمر للعمل من يري نفسه فى نقص أو تقصير ، فإذا صدق ثناء الناس عليه ، وأحسن الظن بنفسه قعد عن العمل وهذه مصيبة .

وعليه أخي فإن أهل الروضة لا يسكرهم ثناء ولا يغرهم مدح ، ولا يحزنون لقدح ، بل إن المدح يجعل أحدهم يتطامن ويخضع ، ويعود إلي صوابه ، ويسترد ما تبقى عنده من عقل وتقى ، ليرى نفسه علي حقيقتها ، ويرى كيف فرطت في جنب الله ، وركبت كل حاجة وداجة ، فالمدح يردهم إلي الصواب ، ويبصرهم بالعيوب ، ويذكرهم بما فرطوا في أمر الله عز وجل ، إذن كيف يفرح بمدح أو يهتم بقدح من علم أن الله تعالي عليه رقيب ، يعلم سره وجهره ، ويرى مخبره ومظهره ؟ وتأمل أخى حال محمد بن المنكدر ، فقد روى عكرمة أنه جزع عند الموت فقيل له : لما تجزع ؟ قال : أخشى آية من كتاب الله عز وجل :- ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر:47] فإني أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسب [1] إن من يراقب ربه ، ويعلم حقيقه نفسه ، لا يجب أن يخدعه قول مادح لم ير منه غير صورة حسنة ومظهر نظيف ، فعد الناس موتي ، ولا تطلبن بعملك سوى وجه الحي الذى لا يموت ، فإنه بك أليق ، يابن الدعوة ، وربيب المخلصين فانشغل بذنبك ، ودع عنك مدح المادح وقدح القادح ، فإنك والله لا تدري لعل الله اطلع علي بعض ذنوبك فمقتك وطردك ، وقال وهو فعال لما يريد : اذهب فلن أغفر لك أبد ، فيالله لطفا ، وتأمل أخي هذا المشهد ، فلعلك لا تصادف مثله : قالت أم محمد ابن كعب القرظي لمحمد : يا بني لولا أني أعرفك صغيرا وكبيرا لظننت أنك أحدثت ذنبا موبقا لما أراك تصنع بنفسك في الليل والنهار ، قال : يا أماه وما يؤمنني أن يكون الله قد اطلع علي وأنا في بعض ذنوبي فمقتني وقال: اذهب ، لا أغفر لك[2] .

هذه أخي صفة الصفوة ، وسمة أهل هذه الروضة ، بها سبقوا غيرهم ، وبها تفردوا وغردوا خارج السرب ، وأختم هذه العلامة بزهرة بديعة يقدمها يحيي بن معاذ حيث قيل له : متي يكون العبد مخلصا ؟ فرد قائلا : إذا صار خلقه كخلق الرضيع ، لا يبالى

---

(1) صفة الصفوة . 2/ 375.

(2) نفسه .

من مدحه أو قدحه [1]. ثم مضينا في الطريق ، تشدنا نفحاته ، وتحدونا بلابله ، فإذا علامة ثالثة علي الطريق تبدو ، فأشرت إليه لينظر ، **فنظرفقرأ :**

إن أهل هذه الروضة أخى ، يحرسون أعمالهم ، ويحمونها من الظهور ، ويخافون عليها من الانتشار ، وإنهم لأحرص علي إخفاء الطاعات من حرصهم علي إخفاء الذنوب والعورات ، أو أشد ، ولن تلحق بهم أخى إلا إذا عودت نفسك عمل السر وأغلقت دون أعمال البر أبوابا وأرخيت حجبا ، كما يغلق أهل المعاصي دون معاصيهم أبوابا ويسدلون أستارا ، فكن كذلك ، لينطبع في ذهنك وقلبك أن الله تعالي يراك ويطلع عليك ، وهو وحده الطلب والمراد ، فلا تنازعك نفسك إلي طلب غيره أو قصد سواه ، وهذه والله كبيرة ، بل كبيرة جدا إلا علي المخلصين ، وسأقطف لك في هذه الوقفة زهرات من بساتين القوم تحير عقلك وتمسك لبك ، وتأخذ بمجامع قلبك ، لما بلغه القوم في مجال الإخلاص والتجرد ، يقول أبو موسى الأشعرى : خرجنا مع الرسول ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر ، بيننا بعير نتعقبه ، قال : فنقبت أقدامنا ، فنقبت قدماى وسقطت أظافرى ، فكنا نلف علي أرجلنا الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع ، لما كنا نعصب علي أرجلنا من الخرق ، قال أبو بريدة : تحدث أبو موسى بهذا الحديث ، ثم كره ذلك ، كأنه كره أن يكون شيئا من عمله أفشاه[2] .

قد تدعو الحاجة وتسوق الضرورة إلي إظهار عمل ما، بيد أن الأصل أخى الحبيب عند القوم هو إخفاء العمل وستره والحرص كل الحرص ألا يطلع عليه أحد ، ليظل خالصا بعيدا عن الشيطان ومسه ووسوسته ، وقد تحدث أبو موسى بقصد أن يطلعنا علي حاله وحال إخوانه من السابقين الأولين وجهادهم ، فلما تحدث رجع

---

(1) تنبيه المغترين . صـ78 .

(2) الحديث في صحيح مسلم.

علي نفسه باللوم كراهية إفشاء عمل كان القوم قد جعلوه خبيئة بينهم وبين ربهم ، ولله درهم ، يعلم أحدهم متى يتحدث ، ومتى يصمت ، وهذا من معالم الرجولة الحقة.

إن حب إظهار العمل والسرور باطلاع الخلق عليه شاهد صدق علي عدم الصدق ، ويحكى لك ابن جوزى في صفة الصفوة من أخبار المخلصين ما تلين به القلوب . وتقشعر له الأبدان ، وإليك هذه الباقة من ورود القوم فتدبر وتأمل : عن سفيان قال : أخبرتني أم الربيع بن خيثم قالت : كان عمل الربيع كله سرا ، إن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف ، فيغطيه بثوبه ، وعن زائدة بن قدامة قال : صام منصور بن المعتمر أربعين سنة ، قام ليليها وصام نهارها ، وكان في الليل يبكى ، فتقول له أمه : يابني أقتلت قتيلا ؟ فيقول : أنا أعلم بما صنعت بنفسى ، قال : فإذا أصبح كحل عينيه ودهن رأسه وبرق شفتيه وخرج إلي الناس .

ورحم الله محمد بن واسع يقول : أدركت رجالا كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته علي وسادة واحدة ، قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته ، ولقد أدركت رجالا يقوم أحدهم فى الصف فتسيل دموعه على خده لا يشعر به الذى إلي جانبه [1] .

إن القوم لا يعملون إلا لله ، ومن ثم لايحبون أن يطلع علي عملهم سواه ، وقد وضع ابن عطاء بين يديك ميزانا قسطا تزن به الأمور فقال في حكمه وما أجمل ما قال : استشرافك أن يعلم الناس بخصوصيتك دليل علي عدم صدقك في العبودية . وقد والله صدق . وأخلص لي ولك النصح ، فإذا أردت بعملك الناس فهو الشرك الصريح والرياء الواضح ، والكذب الفاضح ، فكيف تكون عبد الواحد . وقد تقسم عملك بين أرباب متفرقين ؟ ما هذا والله بسبيل المخلصين ، ولا بحال العبيد القائمين علي طريق رب العالمين .

قال صاحبى : هل بقى أمامنا من علامات ؟ قلت : انظر ، **فنظر فقرأ :**

---

(1) راجع صفة الصفوة . عند ترجمة هؤلاء.

تلك آخر العلامات التي ستمر بها ، **وتتوقف أمامها :** كراهية الشهرة ، ونبدأ بخبر أخي ما قرأته إلا خفق قلبى واقشعر بدنى ، واضطربت روحى ، وطار بى طائر الذكرى نحو الجيل الفريد الذى رباه النبي ﷺ، فصنع منهم بشرا يغردون كالبلابل خارج السرب ، لا مثيل لهم إن رحت تطلب لهم مثيلا ، ولا شبيه لهم إن طلبت لهم شبيها ، فانظر أخى . دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه المسجد ، فرأى معاذ بن جبل يبكى ، عند قبر رسول الله ﷺ فقال : ما يبكيك ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء ، الذين إن غابوا لم يفتقدوا ، وإن حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة [1] .

اللهم ارض عن عمر ومعاذ وبارك لنا فيما خلفاه لنا ، وما نقلاه إلينا ، إنها الربانية فى أوج عظمتها ، والهداية في أبهى حلتها ، والإخلاص فى أعظم صوره ، والله إن للكلمات لوقعا فى النفس ليس له مثيل ، ولم لا ؟ وهم بلسان الوحى يتحدثون ، ومن مشكاة النبوة يقبسون ، فاقرأ هذا الخبر وأعد القراءة ، وتأمل قوله : وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء ، إن لبريق الشهرة في النفوس لحلاوة ، ولضجيج الإعلام حول المرء لطلاوة،والشيطان يزين للإنسان حب الظهور،ويؤجج فى النفس عشق الشهرة و حب الذيوع و الانتشار،و الإخلاص أن يعافيك الله تعالى من كل ذلك،فالصدق مع الله تعالى و حب الشهرة لا يجتمعان فى قلب عبد أبدا ، و هذه إشارة يبعث بها إليك إبراهيم بن أدهم حيث يقول رحمه الله : ما صدق الله من أحب الشهرة،يا الله ! بهذا الصدق و هذه الصراحة،وعظنا الرجل و صدق،فبلغت رسالته القلوب عندما علم و عمل،و نصح و انتصح ، وانظر إلى حاله رحمه الله ، يقول ابن الجوزى : اشتهر إبراهيم بن أدهم ببلد ، فقيل : هو فى البستان

---

(1) رواه الطبراني والحاكم وقال : صحيح الإسناد.

الفلانى ، فدخل الناس يطوفون و يقولون : أين إبراهيم بن أدهم ؟ فجعل يطوف معهم و يقول مثلهم : أين إبراهيم بن أدهم ؟ [1] .

اقرأ أخى و تبسم و أنت تتعلم : فجعل يطوف معهم و يقول مثلهم : أين إبراهيم بن أدهم ؟ فرارا من أن يعرف ، و خوفا على نفسه من شهرة تحبط العمل و تبطل السعى إذا استسلم المرء لبريقها و ضجيجها ، أما إبراهيم النخعى فقيه الكوفة فكان لا يجلس إلى السارية فى المسجد حذر من الشهرة وتركا لأسبابها ، و كان رحمه الله يقول : تكلمت و لو وجدت بدا ما تكلمت ، فإن زمانا أكون فيه فقيه الكوفة لزمان سوء [2]، لله درهم .

إن لحديثهم لحلاوة ، و إن تعليقنا عليه يذهب بحلاوته ، و كلامنا و الله إذا وضع بجانب كلامهم غضت حروفه الطرف و توارت خجلا ، فسبحان من خلق هؤلاء ، و رزقهم كل هذا التجرد ، و نسأله سبحانه أن يمن علينا ولو بقطرة من إخلاصهم علنا نلحق بهم ، أو نمر على دورهم ، فنقبل الجدار و الجدار و نستنشق العبير . و أخيرا أخى الحبيب هذه همسة فى أذنك : إن المذموم من الشهرة : أن تطلبها و تسعى فى أسبابها ، وتجد فى البحث عنها و عن بريقها ، وتقدم التنازل بعد أخيه فى سبيلها ، أما إذا جاءتك من عند الله فلا حرج و كن منها على حذر ، واعلم أن الأنبياء و العلماء والخلفاء كانوا أعظم الناس شهرة ، ولكن الله يعصم من يشاء ، فاسأله سبحانه العصمة يعصمك : ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 101]

وفى الروضة أخى الحبيب ، أبصرنا وسمعنا من الآيات و الحكايات ، ما لا عين رأت ، ومن أعاجيب القوم و دلائل صدقهم ما لا أذن سمعت ، رأينا لوحات متعددة ،و صورا مشرقة ، وفى كل المجالات رسخت فى قلوبنا معنى الإخلاص ، وفى أرواحنا حقيقة الصدق ، وزادتنا إيمانا بعظمة القوم الذين استطاعوا بجهدهم و جهادهم أن يفكوا أنفسهم من قيود الهوى و أغلال الشهوة و حبائل الشيطان و ثقلة الأرض

(1) نقلا عن : أصول الوصول ص97.سابق .
(2) نفسه.

openkandil.com

والطين ، فحلقوا عاليا فى آفاق هذة الروضة ، ووقفنا أخى نستعرض صورة بعد صورة و لوحة بعد لوحة ، و ألسنتنا تلهج بالدعاء لأخوان لنا سبقونا و علمونا ،و قلوبنا تنبض بالولاء و الحب لرب هداهم ، ونبى زكاهم ، و كتاب ألهمهم الرشد ،و نقلهم من البداوة إلى الحضارة ومن الضلالة إلى الهدى ، و من الظلمات إلى النور ، والآن أخى هات يدك و انطلق معى نحلق فى بعض مجالات الإخلاص ، لنرى عظمة القوم ونقف على أسبابها .

أما المشهد الأول و نحن نستعرض مجالات الإخلاص ، فهو فى الصلاة وحال القوم فيها ومعها ، و هنا نذكر قول النبى ﷺ: **" ما من أحد يتوضأ ، فيحسن الوضوء ثم يقوم فيركع ركعتين يقبل عليهما بقلبه و وجهه إلا وجبت له الجنة "** [1] ، و لن يقبل المرء أخى بوجهه و قلبه على صلاته إلا إذا كان الله تعالى هو الغاية ، و بابه هو المقصود ، ووجهه هو المطلوب ، و عفوه هو الرجاء ، ووقفنا أخى طويلا أمام هذا المشهد ، لأن اخبار القوم فيه مبهرة ، يقول محمد بن مسعر بن كدام عن أبيه : كان أبى لا ينام حتى يقرأ نصف القرآن ،فإذا فرغ من ورده لف رداءه ثم هجع عليه هجعة خفيفة ، ثم يثب كما يثب الرجل الذى فقد منه شىء فهو يطلبه ، و إنما هو السواك و الطهور ،ثم يستقبل المحراب ، فكذلك إلى الفجر ، وكان يجتهد فى إخفاء ذلك جدا [2].

فانظر إليه أخي وتأمله وهو يقفز من نومه ليبحث عن شيء فقده ، ولم يكن ذلك الشيء سوي السواك يطهر به فمه ، والطهور يغسل به بدنه ، ليصبح بهما أهلا لأن يطرق الباب ، ويدخل الحضرة والرحاب ، ويتوجه إلي الملك الوهاب .

ثم تأمل قول ولده عنه ؛ وكان يجتهد في إخفاء ذلك ، لماذا ؟ لإنه قام لله فهو أعقل من أن يحبط عمله برياء أو سمعه . ومن سمع سمع الله به.

هذا ولد يحكى عن والده ، فما رأيك الآن أخي أن ننتقل لنقف أمام امرأه تحكى عن زوجها ؟ فما أجمل القوم وسيرة القوم وحديث القوم ، إن حديثهم ليأخذ بالنفوس من

---

(1) صححه الألبانى فى صحيح الجامع.

(2) حلية الأولياء7/ 216.

أقطارها ، ويحيط بالقلب من أنحائه ، فلا مفر ولا ملجأ من الإقرار بعظمتهم ، والاعتراف بفضلهم ، والشهادة بسبقهم وتفردهم ، تقول زوجة حسان بن أبى سنان ، كان يجيء فيدخل في فراشه ، ثم يخادعنى كما تخادع المرأة صبيها ، فإذا علم أنى نمت ، سل نفسه فخرج ، ثم يقوم فيصلى ، فقلت له : يا أبا عبد الله كم تعذب نفسك ؟ ارفق بنفسك ، فيقول : اسكتى ويحك ، فيوشك أن أرقد رقدة لاأقوم منها زمانا [1] – يقصد الموت – تأمل أخى هذه اللوحة ، قف طويلا أمام مشهد زوج يتحين نوم امرأته ، فإذا نامت ، تسلل برفق إلى مصلاه ، وما أجمل تعبير المرأة الصالحة : ثم يخادعنى كما تخادع المرأة صبيها ، الله أكبر . يوهمها أنه نام ، فإذا نامت هى، قام هو إلي عمله مع ربه ، وشغله مع مولاه ، فهو يخاف علي عمله أن يحبط ، حتي من حبيسة بيته ورفيقة فراشه ، وقرينة دربه .

وخير ما ينشغل المرء به أيها الحبيب : طلب العلم ، وما ذكر الله عز وجل أحد أفضل من عالم ومتعلم ، ولا خير فيما وراء ذلك ، وزينة العلم وجماله أن يكون لله وحده ، وابتغاء مرضاته ، ولكن النفس والشيطان يصران كل الإصرار ، ويحرصان كل الحرص ، علي أن يفسدا العمل ، ويبطلا السعى ، فيأتي الرياء ويدخل العجب وتتراقص الشهرة ، ويكون طلب الدنيا واصطياد الجاه عن طريق العلم ، وهذه آفات لا تليق برجل يبحث له فى روضتنا عن موضع قدم ، ليعيش في ظلها ، ويعايش أهلها ، إن هذه الروضة المباركة لا تفتح أبوابها إلا لمن طلب العلم لله ، وعلمه لله ، ثم لا يبالى بعد ذلك ، عرفه الناس أم جهلوه ، وقدوته في ذلك إمام الدنيا . الشافعى رحمه الله الذى ضرب لنا المثل الأعلي فقال : وددت لو أن الناس تعلموا هذا العلم على ألا ينسب لى حرف منه ، هذا هو أيها الحبيب سلوك الكبار ، فهل تطيقه ؟ أن يأخذ الناس علمك ، وينقلون عنك دون أن ينسب إليك ؟ هل فينا أو بيننا من يطبق ذلك ؟ والله

---

(1) نفسه. 3/ 117.

إنها لكبيرة إلا علي الخاشعين ، وتأمل أخى هذا الخبر : مر الحسن البصرى علي طاووس وهو يملى الحديث في الحرم فى حلقة كبيرة ، فاقترب منه وقال له فى أذنه : إذا كانت نفسك تعجبك فقم من المجلس فقام طاووس فورا ، وقف أخي كذلك أمام هذه اللوحة التي يقدمها لك في روضة الإخلاص سفيان الثورى رحمه الله تعالي ، فقد كان لا يترك أحدا يجلس إليه إلا نحو ثلاثة أنفس ، فغفل يوما فكبرت الحلقة ، فقام فزعا وقال : أخذنا والله ولم نشعر ، والله لو أدرك أمير المؤمنين عمر مثلى وهو جالس هذا المجلس لأقامه وقال له : مثلك لا يصلح لهذا ، وكان إذا جلس لإملاء الحديث يجلس مرعوبا خائفا ، وكانت السحابة تمر عليه فيسكت حتى تمر ويقول : أخاف أن يكون فيها حجارة ترجمنا بها [1]..

اقرأ هذا الكلام أخى مرة بعد مرة ، وقف أمامه ، فأنت فى روضة الكبار من الأتقياء الأخيار ، والأنقياء الأبرار الذين امتلأت الأرض بهم نقاء وطهرا ، بعد أن ملأها الشيطان وحزبه ظلما وفسوقا وكفرا .

يبدو أخى الحبيب أن النفوس تميل إلي ما فقدته ، وتسعى في طلب ما نقص خطها منه ، ولما كانت حياتنا اليوم في حاجة ماسة إلي أن يجملها الإخلاص ويزينها التجرد ، تسمرت أقدامنا هنا فلا تريد أن تغادر ، وحق لها ذلك ، والآن إلي القرآن وحال القوم معه ، فقد كانوا يقرأون القرآن ، وكانت قراءتهم لله لا يبغون من غيره جزاء ولا يرجون من سواه شكورا ، تقول سرية الربيع بن خثيم : كان عمل الربيع كله سرا ، وإن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه [2]، كان عمل الربيع كله سرا ، ألم أقل لك أيها الحبيب ؟ إن القوم قد انصرفت همتهم نحو غاية واحدة ، أن يرضى ربهم عنهم ، أما رضا الناس فهو غاية لا تدرك ، وأمنية لا تطال ، ووهم لا ينال ، حتى وإن أدركوا ذلك فهم لا يلتفتون إليه ، حكى ابن الجوزى قال : كان إبراهيم النخعي إذا قرا

(1) نقلا عن : أصول الوصول. صـ98.
(2) حلية الأولياء . 2/ 107 .

في المصحف ودخل عليه أحد غطاه [1] إنهم والله إخوة بعضهم من بعض ، فإذا روى الخبر ونسب إلي عدد منهم ، فلأنهم يقبسون من مشكاة واحدة ، وينسجون على منوال واحد ، أما أبو عبد الله الإمام الممتحن . حبيب المؤمنين وربحانة هذه الروضة ، فكان يحيط كل عمله بالسرية التامة ، يقول تلميذه أبو بكر المروزي : كنت مع أبى عبد الله نحوا من أربعة أشهر بالمعسكر ، وكان لا يدع قيام الليل وقراءة النهار ، فما علمت بختمة ختمها ، وكان يسر بذلك [2].

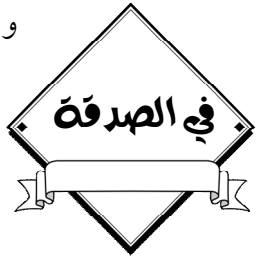

وصدقة السر أخى تطفيء غضب الرب ، فإذا أغضبت ربك – وما أظنك تفعل – وأنت في كل الأحوال بشر من طين ، لا ملكا من المقربين ، فإذا غلبتك نفسك وفعلت ، فتصدق ولا تنس قول حبيبك ﷺ : حتي لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، واجعل لنفسك خبيئة من صدقة ، لاتطلع عليها إلا من يعلم السر وأخفى ، ثم الملك الذى سجلها لك عنده في كتاب تسعد به يوم ينادى عليك : اقرأ كتابك .

وهذه عدة لقطات لأهل هذه الروضة ، فقلب فيها الطرف ، ومتع بها القلب ، وحلق في رحابها إلي آفاق من الرضوان والتقى يقول أبو حمزة : كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز علي ظهره بالليل فيتصدق به ويقول : إن صدقة السر تطفيء غضب الرب ، ويقول محمد بن إسحاق : كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم ، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به في الليل ، لقد كان رحمه الله يعول عددا من أهل المدينة ، طعاما وكساء ، لايعلم بذلك أحد ، ولم ينتشر الأمر إلا في اليوم الذى مات فيه ، حيث فقد الناس ما كان يأتيهم به بالليل ، فأدركوا أن الرجل هو من كان يقوم بأمرهم ، بل انظر أخى إلي نفس الرجل واملأ قلبك بعظمة القوم وشنف سمعك بذكرهم . لقد كان قادرا علي أن يكلف خادما يحمل عنه هذا الأمر ، ويكفيه التعب ، ويقوم مكانه بهذه المهمة ، ولكنه لم يفعل وحمل الطعام علي

---

(1) المدهش.صـ415.

(2) صفة الصفوة : 2.205.

ظهره ، وطاف بالأجولة من بيت لبيت ، يرجو الله والدار الآخرة ، حتى أثرت الحبال فى ظهره ، جاء فى صفة الصفوة عن عمرو بن ثابت : لما مات علي بن الحسين فغسلوه ، جعلوا ينظرون إلى أثر الحبال في ظهره فقالوا : ما هذا ؟ فقيل : كان يحمل جرب الدقيق ليلا علي ظهره يقسمه علي فقراء أهل المدينة [1] ، إننا أخى الحبيب يحق لنا والله أن نباهى أهل الأرض جميعا بهؤلاء الرجال ، فبمثل هؤلاء فقط يكون الفخر وبأخلاقهم يكون النصر،وبجودهم وبرهم تقوى الأمة وتتماسك ، في خطوة نحو القيادة والريادة والشهادة علي الخلق .

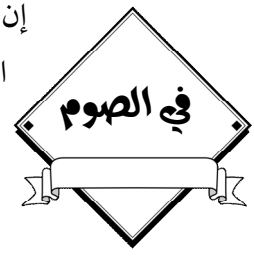

إن الصوم سر بين العبد وربه ، ولذا كان الصيام دائما باب الإخلاص الأعظم ، والصوم المقبول لا يطلع عليه ولا يعلم به إلا عالم السر وأخفى ، ولهذا كان الصوم كذلك طريق الصالحين نحو إخلاص القلب وإسلام الوجه لله تعالي ، وكان للصائمين فى روضة الإخلاص حضور دائم وواضح ، وسترى الآن من أخبارهم عجبا ، فروضة الإخلاص هي روضة العجائب ، فهذا داود بن أبى هند ، صام أربعين سنة لا يعلم به أحد من أهله ولا أحد من أهل السوق ، وكان خزازا يحمل معه غذاءه من عندهم فيتصدق به في الطريق ، ويرجع عشية فيفطر معهم ، فيظن أهل السوق أنه أكل في البيت ويظن أهله أنه أكل فى السوق[2]، لعلك أخى لم تر مثل هذا من قبل ، ولن تراه من بعد ، إنه مشهد تحار منه العقول ، وتطيش له الألباب ، يصوم أربعين سنه،لايعلم به إلا الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وقد اطمأنت لذلك نفسه واستكانت ، فلم تحدثه يوما نفسه أن يذيع سره أو يفشى أمره ، فيا بارئ هذه النفوس سبحانك .

ويبدو أن الأمر لم يكن يقتصر أخى الحبيب علي رجل من بينهم أو رجلين ، وإنما كان الإخلاص أدبا حاضرا وظاهرة بادية في سلوك القوم عند كل هم وفعل ، وحركة وسكون ، فهذا عمر بن قيس الملائي – كما في صفة الصفوة – قام عشرين سنة صائما ما

---

(1) صفة الصفوة : حـ2 صـ96. ابن الجوزى .

(2) نفس المصدر . جـ2 صـ157 .

يعلم به أهله ، يأخذ غذاءه ويغدو إلى الحانوت ، فيتصدق بغذائه ويصوم ، وأهله لا يدرون ، وكان إذا حضرته الرقة يحول وجهه إلى الحائط ويقول لجلساته:ما أشد الزكام [1] ، ما أشد الزكام ؟ سبحان الله ، إنه ليس زكاما بل هى عبرة الحب ودمعة الشوق ، وماء الخوف جرى من قلب أخلص القصد لله ، فروى وجها طالما سجد لله . وضرب لنا المثل في الصدق والتجرد ، فاللهم إنا نسألك يارب هذه العيون الجارية والقلوب الرقيقة الباكية ، أن تكتب لأصحابها براءة من النار ، وأن تلحقنا بهم على قلة في العمل وضعف في الهمة ، واختلاط في النية ، لا يحدونا إلي ذلك سوى كرم وجهك وعظيم حلمك وسعة رحمتك .

إذا رق القلب أخى الحبيب فاضت العين بسحائب من الدمع مصدرها : خوف مزعج أو شوق مقلق ، فمن أحب بكى ، ومن خاف بكى ، فلا تجد المؤمن إلا رقيق القلب مهذب النفس ، قريب دمع العين ، إذا أحب ربه بكى شوقا إليه ، وإذا خاف ربه طار قلبه فرقا ، وجرى دمعه خوفا ، وفاضت عينه خشية ، ولكن الذى يفسد الدمعة أخى ويعكرها هو الرياء ، ولهذا جاءت تحذيرات السلف قوية منذرة ومحذرة من السقوط في جب الرياء الذى يفسد العمل ويبطل الأجر ، وجاءت نصائح القوم مشفقة ودودة ، حرصا علي سلامة القصد ، وإخلاص الوجه ، يقول سفيان الثورى رحمه الله : البكاء عشرة أجزاء تسعة منها لغير الله ، وواحد لله ، فإذا جاء الذى لله مرة فى السنة فهو كثير ، يالله هذا حال القوم أخى الحبيب . يتمنون أن يصفو لهم البكاء ولو مرة فى العام ، أما أنا أخى ، فليته يصفو لى مرة فى العمر ، فإن حدث فلعل الله تعالى يغفر بهذه الدمعة الخالصة ذنوب عمر ولى ، وزمن مضى ، وما ذلك على ربى بعزيز .

لقد كان أحدهم إذا بكى من خشية الله كتم بكاءه خوف الرياء ، وأخفى دمعته التى سقطت كقطرة الندى فوق وجنته ، حتى لا يكدرها غبش الشرك .وحمأ التوجه لغير الله تعالى ، جاء في حلية الأولياء عن عمر بن واسع قال : لقد أدركت رجالا كان الرجل

---

(1) نفسه حـ3 صـ60 .

يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة ، وقد بل ما تحت خده من دموعه ولا تشعر به امرأته ، ولقد أدركت رجالا يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده لا يشعر به الذى إلى جنبه ، وكان يقول:إن كان الرجل ليبكى عشرين سنة وامرأته معه لا تشعر به [1] .

إنها لوحة مشرقة تظلها أنوار التوحيد ، ويعطرها عبق الإخلاص ، وإرادة الله تعالي بالتوجه والقصد ، والعجيب أخى أن القوم كانوا بين الناس منهم ، يتحدثون إذا تحدثوا ، بل ويضحكون إذا ضحكوا فإذا خلوا بأنفسهم فهى الخشية والمراقبة ، والرقة والبكاء ، فهذا محمد بن سيرين رحمه الله تعالى ، يتحدث بالنهار ويضحك . فإذا جاء الليل فكأنما قتل أهل القرية ، نعم أخى ، إذا خلا بنفسه انقبض وبكى ، خوفا وطمعا ، رغبا ورهبا فرضى الله عنهم ورضوا عنه .

قال صاحبى يحاورنى : أوشكنا أن نقطع الروضة فهل لك أن تخبرنى بما يعين على الإخلاص ، و يهدى إليه فى إيجاز تام خشية أن يدركنا الوقت ؟ فقلت : أبشر أيها الصاحب الناصح و الخل الوفى ، هذه رؤوس أقلام توضح لك ما تريد ، و تشرح ما تطلب ، **وتقرب إليك ما تبغى :**

أولا: الحياء من الله تعالى و تعظيم نظره إليك .

ثانيا: مراقبة الله تعالى فى السر و العلن .

ثالثا: اليأس من الخلق و إسقاط نظرهم إليك .

رابعا: الخوف من عدم قبول العمل .

خامسا: خوف الفضيحة يوم العرض على ملك السموات و الأرض .

سادسا : أن تستعيذ بالله تعالى من الرياء كما كان يفعل حبيبك ﷺ ، حيث قال : اللهم إنى أعوذ بك من أن أشرك بك شيئا أعلمه و أستغفرك لما لا أعلمه [2].

سابعا: بغض الرياء و ترك أسبابه و اعتزال أهله قال بشر بن الحارث : ما اتقى الله

---

(1) حلية الأولياء جـ2 صـ347.

(2) رواه الإمام أحمد فى المسند و انظر : صحح الترغيب و الترهيب.

من أحب الشهرة [1].

ثامنا : إخفاء الطاعة قدر الإمكان ، فقد كان السلف يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا يعلم بها أحد حتى زوجته .[2]

تاسعا : مصاحبة أهل الإحسان و التقى ، و مخالطة إخوان الصدق ،و العيش فى رحابهم و التشبه بهم .

عاشرا: مطالعة سير الأنبياء و الصالحين و الصحابة و التابعين .

تلك هى أيها الحبيب الوصايا العشر ، لمن طلب الثواب ، وسعى فى تحصيل الأجر ، فعليك بها أو ببعضها ، واستعن بمولاك عز وجل ، فإنه ينظر إلى قلبك قبل صورتك ، فإن اطلع فى قلبك على حسن قصد و إسلام وجه ،و صدق نية ، وعظيم همة ، فإنه يعين لما يحب و يوفق لما يرضى .

انقضى الوقت المحدد ، و تأهبنا لنودع الروضة و أهلها ، فتوقف صاحبى فجأة ثم قال يخاطبنى : انظر ، ضوء أصفر يضيء و يخفت ، فقلت : لا تقلق ، إنه تحذير للكل وإنذار للجميع ،و إن رجلا من أهل الروضة يأبى أن نغادر قبل أن يوقظنا من غفلة ،و ينبهنا من سنة ، أتدرى من هو ؟ أنه مورق العجلى رحمه الله يطل علينا باسم الوجه ، هادىء النفس ثم خاطبنا قائلا : خير من العجب بالطاعة ترك الطاعة [3]، إنها إشارة تحذير من ناصح أمين ،يرى أن ترك الطاعة خير من العجب بها ، فإن العجب يستبدل الأجر بالوزر ، ولهذا كان الصالحون يحذرون منه ومن أسبابه وبواعثه ، فهذا بشر بن الحارث صلى يوما فأطال الصلاة وأحسن ، ورجل يصلى خلفه ، فنظر إليه بشر و قال : لا يعجبنك ما رأيت منى ، فإبليس عبد الله مع الملائكة دهرا ثم صار إلى ما صار إليه ، وإنما يدفع الرياء و العجب

---

(1) سير أعلام انبلاء ج10 ص746.

(2) نفسه ج9ص349 .

(3) البيان والتبيين ج3ص181 .الجاحظ .دار الكتب العلمية.

openkan.com

الاول : أن توقن أنك ما أطعت الله تعالى بقدرتك ،و إنما بتوفيق الله ابتداء و معونته انتهاء ، فلم العجب و ليس لك فى الطاعة حول و لا قوة ؟.

الثاني: ما يدريك بعد الطاعة أنك تثبت عليها ؟ وأن مولاك يمن عليك بحسن الخاتمة ؟ إن إبليس عبد الله من قبل سنين عددا،ثم انتهى إلي ما تعلم فلا تعجب .

زهرة الوداع

وعند الباب استقبلنا غلام بهي الطلعة وضاء المحيا،جميل الثياب حسن الصورة كأنه من ولدان الجنة،تقدم نحونا ، و فى أدب جم دون أن يتكلم مد يده و قدم إلينا زهرة نادرة الشكل و الرائحة، فأخذناها و إذا على بعض أوراقها : يقول ابن الجوزى : قال بعض أصحاب أبى حامد الغزالى عند موته : أوصنى ؟ فقال : عليك بالإخلاص ، فلم يزل يكررها حتى مات [1].

خرجنا من الروضة ، و أغلق الباب ، فلما صرنا على بعد ، سمعنا قارئا يردد قول ربنا عز و جل : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البيِّنة:5] وكان الصوت ربانيا كأنه من مزامير داود ، فيه من صوت الشيخ عبد الباسط رقته وروعته ، و من صوت الشيخ المنشاوى جماله وعذوبته، ومن صوت الشيخ الحصرى إخباته وإنابته ، فتجاوزت الآية الآذان ، ووصلت إلى سويداء القلب فاستقرت ، ثم مضينا فى الطريق إلى روضة أخرى .

(1) المنتظم .ج17ص127 .ابن الجوزى .